(11)

تحت الحصار

الزمان: 28 أكتوبر 1948م

المكان: الفالوجا

كان يوم 17 أكتوبر يومًا عصيبًا في الفالوجا، فقد اقتحم اليهود دفاعات المدينة من جهة المدرسة بالدبابات، وكانوا مدعومين بالطائرات. كان الرصاص والقذائف في كل مكان. خرج "جمال" من مقر قيادة الكتيبة وحمل بيده مدفع التومي ليشارك في المعركة! فلم يعد للتنظيم دور وقد صار العدو داخل عراق المنشية بالفعل! مع الشعور بالخطر حمل كل فرد سلاحه، حتى العمال والطباخين وسائقي السيارات، والذين أبدى أحدهم واسمه "عزت"(34) بطولة نادرة.

كان عدد الجرحى كبيرًا نتيجة للقصف الجوي المركز، ولاستخدام العدو الدبابات! ولم يكن بيد الجنود المصريين سلاح متطور مضاد للدبابات عدا بعض مدافع «بيات» التي تصوب على سير الدبابة وبقوة تدمير ضعيفة ومحدودة الجدوى! لهذا كانت الدبابات سلاحًا ناجعًا بيد

34 التقى "جمال" بعد الثورة بعزت في أحد المستشفيات العسكرية، واكتشف إصابته بالسل في العظام، ولم يكن في مصر وقتها علاج لحالته، فأمر "جمال" بسفر، للولايات المتحدة لتلقي العلاج. لكن القدر عاجله، رحمه الله رحمة واسعة، فهو الرجل البسيط الذي كان له قلب أسد على حد وصف "جمال" في يومياته.

العدو. ومع ذلك فقد كمن المصريون لدبابات العدو عند حقل التين الشوكي القريب من المدرسة، وكان رتل دبابات العدو مكونًا من ست دبابات. صوب الشاويش «عبد الفتاح» مدفعه على سير الدبابة الأولى بعد أن اقترب منها مسافة أمتار قليلة ليتغلب على ضعف قوة تدمير مدفع «بيات»، وأطلق قذيفته فدمر الأولى. وصوب قائد الفصيلة مدفعه للثانية ودمرها كذلك بمقذوف واحد. وانفجرت الدبابة الثالثة بأحد الألغام الأرضية المضادة للمركبات. بعد تدمير ثلاث دبابات أدارت باقي الدبابات أبراجها للخلف وانسحبت خارجة من عراق المنشية. بعد معركة الدبابات الصغيرة تلك اندفع الجنود ليعيدوا الأسلاك الشائكة التي حطمتها الدبابات لمكانها.

تذكر «جمال» التغير النوعي الذي أحدثته العجلات الحربية في جيوش الرعاة الآسيويين (الهكسوس) عند احتلالهم لمصر! عندما قال صديقه «كمال»:

الحرب الحديثة بتعتمد على السلاح وتفوقه النوعي بقدر ما تعتمد على الرجال. الشجاعة ما زالت ضرورية لكنها مش كافية لوحدها علشان تكسب حرب.

فأجابه «جمال» متممًا لعبارته، وهو يرفع مدفع التومي في يده:

- وطول ما مصدر سلاحنا هو الغرب المتحالف مع العدو الصهيوني عمرنا ما هنكسب حرب. مش هيسمحوا لنا نقارن بالعدو فضلًا عن التفوق عليه. زي ما إنت شايف، العدو غير معايير المعركة باستخدام الطيارات رباعية المحركات،

والدبابات! عدد الشهدا والجرحى في اليومين الأخيرين أكتر من عددهم طول الشهور اللي فاتت!

عاد «جمال» لمقر رئاسة الكتيبة، وأرسل طلبًا عاجلًا لقيادة اللواء بإرسال مدافع مضادة للدبابات بأي صورة. كان يعرف صعوبة الاستجابة لطلبه، فعراق المنشية محاصر من كل الجهات، والقوات التي ستأتي بالمدد ستتعرض لهجوم العدو الرابض على الطرق، لكن ضابطًا شجاعًا استطاع أن ينفذ من كمائن العدو لعراق المنشية ومعه المدافع المطلوبة، فطلب «جمال» من القيادة نيشانًا له تقديرًا لهذه البطولة النادرة.

كان إخلاء الجرحى والوصول بهم للمستشفى في الخليل مشكلة كبيرة، فقد كان العدو يحاصر قطاع الفالوجا - عراق المنشية من ثلاث جهات ويقطع عنها الإمدادات، ولم يترك للقوات غير طريق واحد للانسحاب نحو غزة!! وقد صار قائد الكتيبة ضابطًا رائع السمعة هو البكباشي «السيد طه»، الملقب بالضبع الأسود! وقد اجتمع رأيه مع أركان حربه الصاغ «جمال عبد الناصر» في بداية الحصار على عدم الانسحاب. ورغم رفعهم هذا الرأي لقيادة اللواء، وردت إليهم الأوامر في 21 أكتوبر على غير ما أرادوا، فقد دخل البكباشي «السيد طه» على «جمال» مقر القيادة وهو مكفهر الوجه، وقال:

- فيه أمر بالانسحاب الساعة ١٨ هيوصلك دلوقت بالإشارة يا «جمال»!

- يعني كلامنا معاهم في مؤتمر قيادة اللوا مجابش نتيجة؟!!

- مفيش فايدة فيهم! قادة الألوية مهزومين بالفعل قبل ما ييجوا الميدان.

- والناس؟ الناس يا أفندم؟ السكان الفلسطينيين اللي تعاونوا معانا في المنطقة! هيكون إيه مصيرهم بعد انسحابنا؟ كل السكان من عراق المنشية لبيت جبرين! هنسيبهم لعصابات اليهود[35]؟

- مش عارف هيكون مصيرهم إيه، لكن أكيد مصير مؤلم في كل الأحوال!

هكذا أجابه «السيد طه» وهو يشاركه الألم والقلق على مصير تلك العائلات بنسائها وأطفالها وشيوخها!

- طيب وعراق المنشية اللي صمدت قدام مدرعات اليهود وطيرانهم، هنسيبها بالسهولة دي تقع في إيديهم؟

لم يكن البكباشي «طه» أقل منه لوعة وانزعاجًا! فهو مقاتل وبطل حقيقي، لكنه في النهاية عسكري منضبط ويجب أن يلتزم بالأوامر الصادرة إليه.

وصلت الإشارة بالانسحاب فعلًا للكتائب الثلاث في قطاع الفالوجا. وبدأ الضباط والجنود في حزم شدة الميدان استعدادًا للرحيل، ثم وصلت إشارة جديدة بإلغاء الانسحاب. كادت عينا «جمال» تفيض وهو يقرأ الأمر

(35) هكذا فكر وكتب في مذكراته عند ورود أوامر الانسحاب أول الأمر.

الجديد، وطار إلى حيث البكباشي «طه» يخبره، فلم يملك الأخير فرحته حتى إنه عانق "جمال" مهنئًا، والذي أجابه قائلًا:

- التهنئة فعلًا يا أفندم هتكون مع إشارة استئناف القتال، لازم نسيطر بسرعة على موقع «خربة حمدي العملين» قبل العدو ما يحتلها.

خلاص، جهز «أبو زيد» وسريته للتحرك أول ما توصل الأوامر بالاشتباك مع العدو، وتوصل الذخيرة الجديدة.

لكن الأوامر والذخائر تأخرت كالعادة، وجاء اليوم التالي ليحمل معه خبر استيلاء اليهود بالفعل على «خربة حمدي العملين»! وكذلك «خربة أبو رحمة» و«خربة كركرة»! بهذا كان الطريق الوحيد للانسحاب قد قطع، ولم يعد هناك للقوات أي طريق نحو المجدل أو الخليل .. أو حتى غزة!

في المساء أعلن البكباشي «طه» عن تخفيض التعيينات الموزعة على القوات للربع، لتكفي التعيينات المتوافرة أطول فترة ممكنة، وهي 12 يومًا مع الاقتصاد الشديد فيها. وفي 27 أكتوبر توالت الأخبار! العدو يحتل بئر سبع، وبيت جبرين وبيت العزة، وغيرها كثير من النقط الحصينة على طرق مواصلات الجيش المصري، وبهذا صار اللواء الرابع معزولًا في الفالوجا، واللواء الثاني في أسدود والثالث في النقب!

صباح يوم 28 أكتوبر كان «جمال عبد الناصر» في خيمته يسمع راديو القاهرة. تحدث «النقراشي باشا» رئيس

الوزراء عن الحرب حديثًا حماسيًا، ونفى نفيًا قاطعًا أن يكون اليهود قد احتلوا «بئر سبع»[36]!!! كذلك ذكر الباشا أن لواءً جديدًا يتم إعداده في القاهرة لإمداد القوات. دخل عليه البكباشي «سيد طه» وهو يمسك بيده ورقة ويقول ساخرًا وهو يلوح بها:

- الباشوات باعتين لنا أمر بالاستيلاء على بيت جبرين! وطبعًا مفيش حس ولا خبر عن الذخيرة! جهز نفسك يا «جمال» علشان نروح نحدف الصهاينة في بيت جبرين بالطوب.

- و«النقراشي باشا» بيؤكد للناس عدم احتلال بئر سبع!!

قطع حديثهما أزيز طائرات العدو تحلق فوق المعسكر!

- واضح من الصوت إن الطيارات على ارتفاع منخفض، خلي جماعات الفيكرز تحاول التصويب عليها يا جمال قبل ما يبدأ القصف.

خرج الاثنان عدوًا من الخيمة، فإذا بالسماء والأرض قد غطتها أوراق تتطاير! العدو يلقي بالمنشورات إذن ولم

---

(36) لاشك أن البيانات الكاذبة التي أذيعت لمدة يومين حول نكسة يونيو 1967 خطيئة كبيرة بحق الشعب، لكن الغريب والمريب أننا نتذكرها دائمًا ونستدعيها دائمًا، ولا نتذكر أبدًا أن هذا كان تكرارًا لخطيئة تمت في العهد الملكي .. أزهى عصور الديمقراطية والليبرالية الذي يتباكى عليه بعضنا اليوم، وكان من قاله رئيس الوزراء نفسه وليس مجرد مذيع في صوت العرب!! لكن آفة حارتنا النسيان حينًا .. والهوى والغرض أحيانًا.

يأت للقتال. توقفا وكل منهما يلتقط ورقة من منشورات العدو، وأخذ «جمال» يقرأ ما فيها، وتلك اللغة العربية الركيكة التي كتبت بها:

«أيها الضباط والصف والعساكر في اللواءين الثاني والرابع، هل تعلمون أنكم محاطون؟ اللواء الثاني محاط به وكذلك الرابع ولا توجد أي وسيلة اتصال بينهما. هل تعرفون ما هو معنى الإحاطة؟ الإحاطة معناها الفناء والموت وإنكم لتشعرون بهذا في القريب العاجل. ولا يستطيع قوادكم أن يبرؤا بوعودهم الكاذبة، قائلين بأن النجدات من الرجال والمهمات والوقود ستصلكم قريبًا .. كلا. احتلت القوات الإسرائيلية بئر سبع بعدما دكت قواتكم دكًا وسحقتها سحقًا. وإذا اتكلتم على النجدات التي سيرسلها الملك عبد الله، فاعلموا أنه لا ينوي إلا طرد قواتكم من قواعدها في بيت لحم والخليل. فإنكم ترون الآن في هذه البلاد نتائج الدعاية الكاذبة التي كنتم تصدقونها قبل ما أرسلتم من مصر! وصف قوادكم وساستكم «مرحلة» فلسطين بأنها سهلة، ووعدوكم بالغنائم والتمتع. أين الغنائم وأين التمتع؟ لم تجدوا هنا إلا المصائب، ولم تلاقوا إلا الخسائر الفادحة، ولن تلاقوا غير هذا في المستقبل. وقد شاهدت عيونكم بأن اليهود يجيدون الدفاع عن وطنهم وأراضيهم، ويحسنون التحارب، فإنهم لم يحتلوا بلادًا غريبة، ولم يفتكروا - ولا يفتكرون - في احتلال أي بلاد ليست لهم. وإذا تطلعتم

للخريطة تبين لكم أن القوات الإسرائيلية تحيطكم إحاطة السوار بالمعصم.

عليكم أن تختاروا؛ إذا أردتم البقاء في الحياة فاستسلموا، وستعودون سالمين ولا تصدقوا الدعايات القبيحة بأننا نقتل الأسرى، قوادكم يريدون الأوسام والنياشين ولا يهتمون بموت المئات والآلاف. اللواء «أحمد محمد علي النواوي بك» أمر بالقتال حتى الموت، ولكن أين صاحب العزة الآن؟ ولى دبره تولية الجبان بعدما أسرنا ضباط من رئاسته! أين قائد بئر سبع؟ ترك جنوده وهرب. كل من يحضر وبيده هذا المنشور ستؤمن حياته ويعود سالمًا إلى بيته. ثقوا بأننا سنحترم حقوق مندوبكم الذي يأتي حاملًا الراية البيضاء.

أعلمتم .. أنذرتم»

خاطب «جمال» قائده بصوت مرتفع يتغلب به على صوت الطائرات:

- بيطالبونا بالتسليم ويتعهدوا بسلامتنا! لكن إيه كل التفاصيل دي؟

- حرب نفسية يا «جمال»، علشان نحس إننا مكشوفين قدامهم.

- طيب بعد إذنك يا أفندم ..

قالها «جمال» ولم ينتظر الإذن فيما يراه واجبًا! كانت الطائرات فوقه وهو واقف في فناء المعسكر، عندما هتف في الجنود قائلًا:

- يا رجالة .. الصهاينة عاوزينا نسلم .. صحيح إحنا متحاصرين من يوم 16، وصحيح مفيش تعيين بيوصلنا، وصحيح كمان إن ذخيرتنا تقريبًا خلصت! وصحيح إن مفيش إمداد جوي وصل لنا لحد دلوقت. لكن .. هل معنى كدة إننا ننسى الشنبات اللي في وشنا ونسلم للصهاينة؟ هنسيب الستات والعيال اللي حوالينا من السكان لليهود غنيمة مستباحة؟ ولا هنحارب لآخر طلقة، وبعد آخر طلقة لآخر راجل فينا. عشنا رجالة وهنموت رجالة. تمام؟

«تمام يا أفندم» هكذا تعالت الأصوات، ليستأنف «جمال» قائلًا:

- طيب حد يجيب لي لمبة جاز، وجمعوا لي كل منشورات العدو هنا.

قالها وهو يمزق الورقة بيده ويضعها على الأرض، قبل أن يناوله جندي لمبة الجاز فيفتحها ويفرغ ما بها من كيروسين على الأوراق، ويشعل فيها النار بقداحته! فيأتي كل الجنود ويلقوا الأوراق التي جمعوها في الآتون الذي أشعله، ويفعل البكباشي «طه» مثلهم وهو يربت على كتف «جمال» ويقول:

- عاشت الهمة يا «عبد الناصر» .. عفارم.

ابتسم له «جمال» شاكرًا ، ثم رفع عيناه نحو طائرة العدو التي اقتربت من جديد ، وكان قائدها ينظر للجنود وهم يشعلون النار في الأوراق.

لقد وصل رد القوات الصامدة للعدو .. وصل بلغة النيران رغم نفاذ الذخيرة!! وهو عين ما أراده «جمال»!!

(12)

وجهًا لوجه

الزمان: 31 أكتوبر 1948م

المكان: قطاع عراق سويدان/الفالوجا/ عراق المنشية

بعد وصول الإمداد الجوي بست طائرات من القوات الجوية المصرية لسماء القطاع المحاصر، وإلقاء التعيينات والذخيرة من الجو يوم 29 أكتوبر، استعادت القوات المحاصرة نشاطها وحماسها على الفور، وطلب «السيد طه» من «جمال عبد الناصر» أركان حرب الكتيبة إعداد خطة تدعيم دفاعي للقطاع المحاصر. في صباح اليوم التالي دخل الصاغ «جمال» على قائده البكباشي «طه» في غرفة القيادة، مؤديًا التحية العسكرية ومعطيًا تمام الخطة المطلوبة:

- الخطة الدفاعية جاهزة للعرض على سيادتك يا أفندم.
- تعالَ يا «جمال».

قام «السيد طه» ليقف أمام خريطة تأمين عراق المنشية، وبدأ «جمال» يشرح خطته، وقد تلخصت في:

- سحب القوة المرابطة في عراق الأمير، وتدعيم قوات الفالوجا وعراق المنشية والكوبري الرابط بينهما بها.
- إعادة تنظيم الخط الدفاعي في عراق المنشية، وتدعيم المدخل الجنوبي بالأسلاك الشائكة.

- توزيع المدافع المضادة للدبابات وستر مواقعها، بحيث يوضع مدفع بجوار مدرسة القرية، وآخر عند المدخل الشمالي الشرقي، وثالث عند المدخل الجنوبي الشرقي، ورابع عند تبة الثلاث شجرات.
- على أن تتم تلك الأعمال ليلًا حتى لا يرصدها طيران العدو المنخفض فوق المواقع[37].

نفذ يا «جمال»، بس ابدأ العمل مع حلول الظلام مباشرة، متوقع العدو يهاجم الليلة بعد رفضنا التسليم، ومع وصول خبر الإمدادات الجوية ليه.

أدى «جمال» التحية منصرفًا وبدأ التنفيذ بالفعل مع آخر ضوء، وصدق ما توقعه «السيد طه»، فقد حاول العدو اقتحام عراق المنشية في التاسعة ليلًا، فكبدته القوات المصرية خسائرَ كبيرة في الأرواح، وكان للمدافع أثر قوي في الدفاع عن مداخل المدينة، حيث هاجم اليهود من مدخلين. وأدى طاقم المدفع عند مدرسة القرية أداءً مبهرًا كان موضع إطراء القائد وقائد الأركان. وصدر قرار جديد بتجديد وقف إطلاق النار قبله الجانبان.

في المؤتمر التالي لقيادة اللواء والذي حضره قادة الكتائب المحاصرة، كان رأي الأغلبية وبينهم «جمال» أن الهدف من وجودهم في مواقعهم الحالية قد انتفى! فقد كانت أهمية المواقع الحالية هي فصل قوات العدو في النقب الجنوبي عن الشمال، والآن قد اتصلت قواته بالفعل ولم يعد هناك فائدة كبيرة من وجودهم في تلك المواقع،

(37) تفاصيل الخطة كما جاءت في اليوميات.

إنما يفيد المعركة لو أعادوا تمركزهم بالتحرك نحو الخليل لينضموا للقوات المصرية هناك.

في صباح اليوم التالي، لاحت من بعيد سيارة للعدو ترفع علمًا أبيضَ، ففهمت القوات أنهم جاءوا في مهمة تفاوضية، وعندما اقتربت اتضح الصوت الذي يخرج من مكبر الصوت المثبت أعلاها وهو يقول:

- «ضابط إسرائيلي يطلب مقابلة ضابط مصري .. ضابط إسرائيلي يطلب مقابلة ضابط مصري»

كان «جمال» حريصًا على الخروج للقائهم بنفسه، وفي أبعد نقطة ممكنة عن تحصينات البلدة، حتى لا يسمح لهم بالتطلع بعيونهم للتحصينات ودراستها، لهذا قفز في عربة جيب مكشوفة ومعه ضابطان، ومعهم شاويش مسلح بمدفع تومي.

كانت مشاعر «جمال» متضاربة خلال رحلة الجيب القصيرة إلى حيث تقف سيارة العدو! فهو أول لقاء بغير قتال مع العدو. طلب من السائق أن يتوقف بمحاذاتها، ونزل ومعه الضابطان من السيارة. ووجه نظره لمن قدَّر أنه الأعلى رتبة من الضابطين اليهوديين، قائلًا:

- وفقًا لاتفاقية هوج لعام 1907م[38]، وللفصل الثالث، المواد رقم 32، 33، 34، تفضل بما جئت من أجله.

(38) الاتفاقية المنظمة لقواعد وأخلاقيات الحرب، والفصل المذكور هو المختص باستخدام العلم الأبيض للأغراض المختلفة للتواصل بين أطراف المعركة.

تحدث أحد اليهوديين قائلًا بعنجهية شديدة، وباللغة الإنجليزية:

- أنا المساعد الشخصي للقائد العام لهذا القطاع، وأنا مكلف بأن أشرح لكم موقفكم. أنتم محاصرون من كل جانب ونحن نطلب منكم التسليم.

- أما موقفنا فنحن نعرفه جيدًا، وأما التسليم فلن يحدث. نحن هنا ندافع عن شرف جيشنا.

هكذا أجابه «جمال» بصوت شديد الثبات، وهو يشعر بسكينة تلف كيانه كله، وتنعكس على نبرات صوته أمام العدو. أمام هذا الموقف الصلب تنازل اليهودي عن إنجليزيته، وبدأ الحديث بعربية طلقة كشفت أصوله، يحاول التهويل من صعوبة موقف القوات المحاصرة، فأعاد «جمال» ما قاله مرة ثانية. وأمام هذا الإصرار سأله اليهودي:

- ألن تعود لقائدك لتسأله؟

- لا مجال للسؤال في هذا الأمر، فهو محسوم.

تغيرت نبرة اليهودي فصارت أكثر ودًا وهو يقول باللغة العربية:

- هل يمكننا أن نطلب طلبًا إنسانيًا؟

- ما هو؟

- نريد سحب جثامين قتلانا في المعركة السابقة من موقعكم، فهل تمانعون؟

- نوافق وفقًا للأعراف الدولية، سيتم خلال ثلاثين دقيقة تجميع الجثث هنا لتحملوها، ولكن لا تحاول أن تتقدم خطوة واحدة بعد هذا الموقع، ونبه الحمالة التي سترسلها لحمل الجثث بالمثل، وإلا سنكون مضطرين لإطلاق النيران وفقًا للبند 34 من الاتفاقية.

عاد اليهودي لسيارته وانطلق بها، وعاد «جمال» لجنوده يطلب منهم إخلاء القتلى للمنطقة المتفق عليها، وعدم السماح لليهود بالتقدم بعدها، والاستعداد لإطلاق النار لو فعلوا. وتم بالفعل إخلاء القتلى. وبعد ساعة واحدة من تسلم قتلاهم، بدأ العدو في قصف عراق المنشية بمدفعيته، وبكثافة غير مسبوقة!!

كانت مشاعر مختلطة تعتمل في نفس «جمال» بعد هذا اللقاء! كان راضيًا عن كل حرف قاله، ومع ذلك ينتابه شعور غريب، لم يكن شعور الكراهية مألوفًا لديه كثيرًا، الكراهية بمعناها الحقيقي؛ أن تشعر بالضيق الشديد لمجرد وجود شخص ما في حيزك المكاني والزمني! هذه إذن هي الكراهية المحضة! والتي لا يذكر أنه شعر بها من قبل إلا تجاه هذا العدو، وتجاه ما يمثله من معانٍ في هذه الحياة؛ الجشع، الظلم، الانتهازية.

لم يمهل القصف «جمال» ليسبح في أفكاره أكثر من هذا الحد، فقد اشتد لدرجة حتَّمت النزول إلى الدشم والخنادق. هذا هو الشكر المتوقع من اليهود بعد إخلاء قتلاهم!

(13)

في بيت العدو

الزمان: 11 نوفمبر 1948م

المكان: مستعمرة جات اليهودية

حاول العدو اقتحام عراق المنشية وعراق سويدان من جديد يوم 3 نوفمبر، ثم انسحب بدباباته وقد خابت محاولته. توجه «جمال» بتكليف من «طه» لعراق سويدان للتمام على الدفاعات، فداهمه القصف هناك، واضطر لنزول الخندق والنوم فيه حتى الصباح.

عاد لعراق المنشية فوجد طائرات العدو تسقط منشورات حول احتلالها للمجدل وانسحاب الجيش المصري نحو غزة، وتطلب منهم الانسحاب، فقام الجنود تلقائيًا بتكرار ما فعله «جمال» في المرة الأولى.

في صباح الأحد 7 نوفمبر سمع «السيد طه» من راديو لندن أن الحكومة المصرية طلبت سحب قواتها، ورفض اليهود ذلك واشترطوا تسليم السلاح والضباط مقابل انسحاب الجنود. أسر بهذا لجمال وطلب منه ألا يخبر أحدًا حرصًا على المعنويات التي كانت منخفضة بالفعل منذ انسحاب الجيش لغزة قبل يومين. وفي صباح الاثنين 8 نوفمبر أذاع راديو القاهرة خبر انسحاب القوات المصرية من غزة إلى سيناء، ثم تم تكذيب الخبر من قبل وزير الحربية! وتأكدت القوات المحاصرة من صدق الخبر بعد هذا.

وصلهم البريد ومعه الجرائد من مصر! صحيفة الإخوان تتحدث من جديد وكأن المتطوعين العرب كلهم إخوان، بل وضباط الجيش المصري كذلك!! بل وتجاسرت على نسبة البطل «أحمد عبد العزيز» للإخوان بعد وفاته!

وصل كذلك أمر ملكي بترقية البكباشي «السيد طه» إلى رتبة «أميرالاي» ومنحه البكوية، بارك له الضباط والجنود جميعًا بفرحة صادقة، فقد كان قائدًا ميدانيًا رائعًا، شتان بينه وبين «نعمة الله بك» أو «جاد بك» في منهج القيادة وروحها! لكن مع المساء تبخرت الفرحة وانقطعت كلمات التهاني! فقد سقطت عراق سويدان! وكان سقوطها مدويًا!

اشتد ضرب المدفعية لها طوال الليل بكثافة عالية، وأعقبه هجوم بالطائرات رباعية المحرك، ثم الهجوم البري بالدبابات، وقد صمدت القوة المرابطة فيها لآخر طلقة وآخر رجل بصدق، فلم يخرج منها غير جندي واحد وضابط واحد بعد نفاد ذخيرتهما. ورقد الباقون بين شهيد وجريح.

طلب الأميرالاي «السيد طه» من مدفعية الفالوجا ضرب مستعمرة «جات» القريبة منها، رغم نقص الذخيرة، وكان هدفه هو الرد على سقوط عراق سويدان! وبالفعل قامت المدفعية بقصف المستعمرة قدر ما سمح لها مخزون ذخيرتها.

في صباح العاشر من نوفمبر، جاءت السيارة تحمل العلم الأبيض من جديد، وخرج لها «جمال» بنفس كيفية المرة السابقة. كانت تحمل معها هذه المرة طلبًا باجتماع مع قائد القوات وتركت للجانب المصري اختيار المكان

بين بيت جبرين ومستعمرة جات. كان الطلب موجهًا لطه باسمه هذه المرة، فعاد "جمال" لداخل البلدة ليخبره، وتعجب من رد "السيد طه" هذه المرة وهو يقول:

- بلغهم أني موافق! بكرة الساعه 15 في مستعمر جات.

هم «جمال» بأن يناقشه في الأمر، فعاجله «طه» بقوله:

- بلغهم الرد، وبعدين نتكلم.

أبلغهم «جمال» بموافقة القائد، وعاد ليلحق بالأميرالاي «طه» في مقر القيادة الجديد، حيث خصص منزلًا هجره سكانه بعد سقوط قنبلة فيه لذلك الغرض. على مقعد نصف مكسور جلس «طه» وهو في كرب عظيم. وفور دخول «جمال» بدأه القائد بالكلام:

- الوضع أصبح مختلفًا يا «جمال» بعد سقوط عراق سويدان، وانسحاب الجيش المصري من فلسطين، ونفاد الذخيرة. حفظ حياة الجنود هو واجبنا دلوقت.

- أنا كنت مع فكرة المناورة والتقهقر للخليل خلال مؤتمر قيادة اللواء يا أفندم زي ما حضرتك فاكر طبعًا، لكنهم دلوقت عاوزينا نسلم السلاح؟

- مش هنسلمه، هنعرض عليهم الانسحاب بكامل قواتنا وعتادنا، نبقى حاولنا لآخر فرصة. هنرفض أي وضع مهين لينا وللجيش المصري قطعًا.

- يعرف «جمال» تمامًا أن الضبع الأسود «سيد طه» لا يجنح للتفاوض خوفًا على نفسه، فقد كان دائمًا مثالًا للشجاعة، ولكنه شعوره بالمسئولية عن جنوده في وضع عسكري بائس تمامًا.

في اليوم التالي تحركت الهامر بكل من «السيد طه» و«جمال» و«رزق الله الفسخاني» و«إبراهيم بغدادي» و«خليل إبراهيم» نحو مستعمرة جات! استقبلهم اليهود عند الباب وقالوا إن القائد بالداخل يدعوهم للقائه! وبداخل المستعمرة شعر الضباط بالنقلة الحادة بين الرفاهية الموجودة بالمستعمرة رغم حالة القتال، وبين الحالة البائسة في عراق المنشية وكافة البلدات الفلسطينية! كان السؤال الذي يفرض نفسه على العقول: لماذا توافرت كل سبل النجاح لليهود في حياتهم وحربهم على السواء، بينما فرضت كل ظروف الفشل والتعجيز على العرب في حياتهم وفي حربهم؟ من غير الاستعمار يفرض علينا هذا السياج من التخلف والفقر؟ مقابل ما يرونه هنا من ميكنة زراعية كاملة، ومنازل أنيقة، وحياة فارهة بأقصى ما تسمح ظروف الحرب؟! رأوا كذلك بعض آثار الدمار من قصف المدفعية أول أمس، لكن المساحة الزراعية الواسعة داخل السياج والتي توفر مسافة واقية للمنازل في وسط المستعمرة قد جعلت قصف المدفعية محدود الجدوى للغاية. عند هذه النقطة همس "جمال" بأذن القائد:

- اليهود تعمدوا يكون اللقاء هنا، في سياق الحرب النفسية برضو! رفضنا ندخلهم عراق المنشية لجمع قتلاهم علشان ميشوفوش نقاط ضعفنا، وهم تعمدوا يدخلونا علشان نشوف نقاط قوتهم. مهم قوي ميبانش على حد فينا الانطباع اللي هم عايزين يشوفوه يا أفندم.

على مائدة المفاوضات جلس الجميع، ووضع الجنود اليهود أبريق الشاي والفناجين، وأطباق الحلوى

والشيكولاتة. لم يمد أحد الضباط يده لما قدموه، وتحدث القائد اليهودي بلهجة محايدة في البداية:

- لا نريد سفك المزيد من الدماء، موقفكم ميئوس منه كما تعلمون، ولهذا أنصحكم بالاستسلام.

اعترض حديثه الأميرالاي «سيد طه» بلهجة قاطعة:

- فكرة الاستسلام مرفوضة تمامًا، نعرض الانسحاب إلى غزة بكامل قواتنا.

- رائع يا كولونيل! أنت تطلب الخروج بكل قواتك من الحصار بلا ثمن؟ هذا بدوره مرفوض تمامًا. الحالة الوحيدة التي سنقبل فيها بهذا هي إعلان الجيش المصري انسحابه من الحرب رسميًا وبصورة نهائية، ليست لدينا مشاكل مع المصريين، ولا نريدها بالطبع.

أطرق «السيد طه» للحظة، ثم قال:

- واضح أننا لن نتفق. لكن .. لقد وافقنا لكم سابقًا على إخلاء القتلى، فهل تسمحون لنا اليوم بإخلاء جرحانا بواسطة الصليب الأحمر للمستشفى العسكري في غزة؟

- أوه يا كولونيل! القتلى غير الجرحى! الأموات ليسوا كالأحياء طبعًا. ولكن التزامًا منا بأخلاقيات القتال، يمكننا منحكم ما ترغبون به من أدوية ومعدات وأدوات جراحية.

قام الأميرالاي «طه» معلنًا انهيار المفاوضات، ووقف الجميع، واتجهوا إلى حيث الهامر، وسيارة يهودية تتابعهم حتى خرجوا من المستعمرة.

«اليهودي لا يعطيك شيئًا بغير أن يحصل منك على كل شيء .. كل شيء»

كانت هذه العبارة تتردد بعقل «جمال» طوال رحلة العودة! هذا هو درس مفاوضات القتال مع العدو.

في اليوم التالي عرض اليهود كميات من الأدوية، فقبلها «طه» مضطرًا! ثم عرضوا إخلاء الجرحى لمستشفياتهم كأسرى حرب، فرفض رفضًا قاطعًا. وقال لإبراهيم بغدادي:

تسليم الجرحى كأسرى مش بس مهين للجيش المصري، كمان هيكون مدمر لمعنويات الجنود! نحاول مع طبيب الكتيبة ننقذ ما يمكن إنقاذه بالأدوية والمعدات اللي خدناها منهم، واللي هيجري علينا في النهاية هيجري عليهم.

عندما عرف «جمال» بموقف قائده المشرف علق قائلًا:

- ساعات أسأل نفسي؛ لو كان «جاد بك» مش «سيد طه» هو قائد الكتيبة في الظروف دي، كنت هعمل إيه؟ غالبًا كنت هسيب الجيش وأنتقل لمعسكر المتطوعين.